كل شيء جديد

. سـامي مـهـدي* .

أَسمعُ الآنَ هذا الدبيبْ
غامضًا وخفيًا،
أرى في رمادِ الغروبْ
شفقًا يتقدّم في عجلٍ
وعصافيرَ صبحٍ قريبْ.
وأرى حجرًا تتغيّرُ ألوانُه
وأظافرَ نبتٍ تشقّ الحجرْ
وأرى شجرًا طالعًا ليس مثلَ الشجرْ.

الرصاصُ دموعْ
الرصاصُ توابيتُ مفتوحةٌ للجميعْ
هو ذا موسمُ القتلِ،
فليحتفرْ كلُّ ذي نسبٍ قبرَه
وليودِّعْ منَ الأهلِ مَنْ يستطيعْ،
وَقِفْ أنتَ..
قفْ حيثما يتشظّى عقيقُ النجيعْ.

لدموعي دخانْ
ولقلبي سلاسلُ من ذهبٍ
ولحنجرتي سُلّمانْ
ربما كان هذا حنينًا..
إلى أيّ شيء؟
إلى..
لستُ أدري،
فذي لحظةُ التيهِ والانتظارْ
وذي فسحةٌ بين يومٍ ويوم
ونارٍ و نارْ.

حسنٌ..
لا حنينَ إلى جبلٍ فارقتْه الغيومْ
أو تماثيلِ شمعٍ إذا شبّتِ النارُ فيها
غَدَتْ نُصُبًا للمسوخِ ومبخرةً للسمومْ.
لا حنينَ إلى طللٍ دارسٍ أو بقايا رقيمْ
لا حنينَ إلى أفقٍ غاطسٍ
لا حنينَ إلى عالمٍ ناقصٍ
لا حنينَ إلى أيّ أيقونةٍ أو جمالٍ قديمْ.

المليكةُ ماتتْ
وذا بعضُ ما قال عنها الرواةْ:
غيلةً قتلوها
ونعاها إلى قومها منْ نعاها
جَدَعوا أنفَها
سرقوا تاجَها وحُلاها
زَيَّفوا ختْمَها الملكيّ
وبالوا على عرشها
ومسلاّتها
وتماثيلِها
ودُماها.
غيلةً قتلوها
ولم يَبْكِها جزعًا مَنْ بكاها.

المليكةُ ماتت
وذا بعضُ ما قال عنها الغزاة:
سُجِّيَ الجسدُ الملكيُّ على صخرةٍ
عاريًا في الفلاة،
جثةً يَنْهشُ الذئبُ والضبعُ أحشاءَها،
والغلاةُ
يَدُوسُونها هيكلاً تتفكّكُ أوصالُه،
وعظامًا رماديةً،
تُرِكتْ للبلى حيث كانت،
فلم تكُ ثَمَّ مراسيمُ للدفنِ
أو لغةٌ للصلاة.

* ـ تصويب من الآداب: في العدد ٩ / ١٠، ٢٠٠٤ اجتهدت الآداب في وضع عنوان لقصائد الأستاذ مهدي، فاختارت «قصائد عراقية من منفًى موقّت» ظنًّا من المجلة أنّ الأستاذ مهدي يعيش الآن في القاهرة. وأما الحقيقة فهي أنّ هذا الشاعر العراقي ما يزال في بغداد. فاقتضى التوضيح. (الآداب)

المليكةُ ماتت
وذا ما تبقّى من الذكريات:
طيفُها السومريّ
وظلُّ ابتسامتها
وشذا عِطْرِها
وسناها،
وما استودعتْ من وصيتها
وتمائمِها ورُقاها،
ونحيبُ المحبّين من قومها
ورثاءُ ربابٍ رثاها.

المليكة لـمّا تمتْ بعدُ،
بل لم تَمُتْ قطُّ،
قال الشهودُ الثقات.
غَدَتْ قمراً ذائباً في المدار.
غَدَتْ أيّلاً هائماً في التخوم
ولؤلؤةً في المحار.
غَدَتْ غريناً في المياه.
غَدَتْ بذرةً،
غيمةً،
سُلّماً للسماء.
غَدَتْ محضَ نورٍ ونار،
غَدَتْ لهباً أزليّا

له في الغياب حضورٌ
وفي الموتِ نبضُ الحياه.

الدموعُ رصاصْ،
والتوابيتُ قنطرةٌ للعبور
ومركبةٌ للخلاصْ،
وذا موسمٌ لا مناصَ لنا من غبارِ عواصفه،
لا مناصْ.
فليُقِمْ كلُّ ذي نَسَبٍ ساتراً
ليَقِي ما يصلّي له من خواص
ويرى ما يرى من خلال الخصاص.

أَسمعُ الآنَ هذا الدبيبْ
غامضاً، وخفيّا،
أرى في رمادِ الغروب
شفقاً يتقدّم في عجلٍ
وعصافيرَ صبحٍ قريبْ،
وأرى شجراً بين رملٍ وماء،
ثمراً يستحمّ بضوءِ السماء،
جسداً يتكوّن في الظلّ
ينبجسُ الآن من رحمِ الصخرِ
مثلَ انبجاسِ الينابيعِ
كي يستوي بشراً في الخفاء.

ثَمَّ خلقٌ جديدْ
ثَمَّ صوتٌ جديدْ
كلُّ شيءٍ جديد:
الهواءُ
الترابُ
المياهُ
الشجرْ،
كلّ ما ألفته الحياةُ وأصبح أيقونةً من
حجر،
كلُّ شيءٍ جديدٌ
وذا أفقٌ يتكشّفُ عن قادمٍ من سفر.

ظلُّها شجرٌ وخُطاها مياه
تاجُهَا ذهبُ الصيف،
أثوابُها سَعَفٌ وعساليجُ
مجدولةٌ بدموعِ الجباه،
وتعريشةُ صدرها
تتطاير منها النجومْ،
وتخرّ الغيومْ
رُكَّعاً لعناقيدها،
أو تَحُومْ
حولها كاليعاسيبِ..
صدرٌ رؤومْ

صدرُها،
مُتْرَع بحليبِ الصباح
صدرُ أمٍّ إذا قاربتْها الرياح
خَجِلتْ من مهابتها
وانحنت وانزوتْ كي تمرّ
وتنقلَ خطوتَها حرّةً في البطاح.
أمُّنا، ومليكتُنا هذه،
فاغمروا دربَها بالورود
واصنعوا عرشَها الملكيَّ الجديد

من الخيزران
وافرشوه لها بالقرنفلِ والأقحوانْ.

أمُّنا ومليكتُنا هذه،
وهي صاحبةُ الختمِ والصولجانْ.
أمُّنا ومليكتنا هذه،
وهي تحمل تأريخَها معها
بدمٍ ملكيّ جديد وبوشمٍ جديد.
كلُّ شيء جديد:

ختمُها
ومسلاّتُها
وتماثيلُها
ودُماها
ومراسيمُها
وتمائمُها
ورُقاها.
كلّ شيء جديد
كلّ شيء جديد!

بغداد

أمام منطوقات وريقاتي، يا إخوتي في الأسر، لم يتعب المفكّكون والمؤولون المأجورون في حل شفراتها ورموزها، ولم يتردّدوا في ردّ دفائنها وهواجسها إلى رغبة شديدة أكيدة لديَ في إعادة فتح الزمن البهيّ المجدي، الصاعد ترياقاً لخسارات الزمن الآسن المترسّب في مستنقعات الحياة المسدودة...

وجاءت الافصاحات والتوضيحات مستندةً إلى آخر تقارير الشرطة لتقول: إنّ المدعو عيسى بو وريقات إنّما يتستّر بالحلولية وفلسفة وحدة الوجود ليشيع بين الناس نظريةَ الحزب الواحد والفكر الوحيد ودكتاتورية المعوزين والعمّال والعبيد. والحجج على ذلك، الرمزية منها والمادية، أنّه كان لا يمشي إلاّ بنعل واحدة، ولا يصفق إلاّ بيدٍ واحدة، ولا يعشق إلاّ فصلاً واحداً، ويدعو إلى الزواج بالواحدة.

دار الآداب